كتاب الشهر

الحب الزوجي

رواية لالبرتو مورافيا
تقديم وتلخيص يوسف الشاروني

لست أذكر على وجه الدقة كيف قابلت زوجتي ليدا او متى كان ذلك، ولكنني أذكر انها كانت في مثل سني تقريباً ، وبدا لي ان حياتهــا تشبه حياتي من وجوه كثيرة ، وكان هذا حقيقياً ولكن من نواح قليلةوسطحية، فقد كانت - مثلي - ثرية ولديها فراغ وتتحرك في نفس بيئتي . ومع ذلك فقد بدت لي هذه الشابة ذات أهمية كبرى وكأنما عثرت بذلك على المرأة التي أنشدها . وكانت قد تزوجت من قبل في ميلانو وهي مــا تزال صغيرة رجلاً لم تحبه، واستمر زواجها سنتين انفصلا بعدهما ثم حصلت على طلاقها في سويسرا . واعترفت لي في اول مرة تقابلنا فيها بأنها متعبة من الحياة ، وانها تبغي حياة الاستقرار . وقد تكشفلي من اعترافها هذا انها فيانفس الحالة العقلية التي كنت أعيشها سنوات عديدة ، وقررت في الحال ان تصبح زوجتي .

ورغم اني لا احسب ان ليدا على درجة كبيرة من الذكاء الا انهــا استطاعت ان يكون لها شيء من النفوذ عليّ ، وقد توهمت في ذلك الوقت اني انا الذي اغريتها بالزواج مني ، ولكن استطيع ان اقر الان انها هي التي قررت ذلك . وكنا ما نزال في بدء تعارفنــا حين أسلمت نفسها إلي ، وتكاد تكون هي التي ارغمتني على ذلك ، وهذا الاستسلام زاد من إعجابي بها . بينما كان من الممكن ان يثير احتقاري في حالات اخرى . وطلبت منها الزواج اخيراً وانا على يقين انها ستستجيب لطلبي في الحال . ولكن - على العكس من ذلك - وجدتها لدهشتي تجابهني بما يكاد يكون رفضاً تاماً ، كأنني قد خرقت بذلك الطلب قانوناً اخلاقياً . واحسست انني وصلت الى الاعماق المظلمة ليــأسي القديم ورأيت انني يجب الا احجم الان عن الانتحار . وبعد مضي عدة ايام اتصلت بي تليفونياً تسألني بدهشة عن انقطاعي عنهــا ، فذهبت اليها حيث رحبت بي ، وهي تعتب عليّ انني هجرتها ولم اعطها فرصة للتفكير . واعلنت موافقتها ان تصبح زوجتي ، وبعد اسبوعين كنا قد تزوجنا .

وبعد ذلك بدأت فترة من اسعد فترات حياتي ، فأحببت ليدا بعنف ، ومع ذلك فقد كنت خائفاً ان افقدها طيلة الوقت ، ولهذا رأيت ان ادمج حياتها في حياتي بكل وسيلة ممكنة لأخلق روابط بيننا . ولما كنت أعرف انها جاهلة ، فقد اقترحت عليها اولاً ان اقوم بتدريسها برنامجاً في التربيــة الجمالية ، واخبرتها انها ستجد لذة في التعلم كتلك اللذة التي سأجدهــا في التعليم . واكتشفت انها انسانة معقولة للغاية ، فاستطعنا ان نتفاهم على ترتيب جدول لدروسنا وأخذت على نفسي أن اجعلها تقدر كل شيء اعرفه وأحبه. ولست أعرف الى اي حد كانت تتابعني او تفهمني ، ولو أنه أقل بكثير مما أظن . ومع ذلك كانت تشعرني بانتصاري عندما تقول ببساطة:« انني احب

« لسنا نستطيع ان نرى في هذا اللون من الحب الزوجي الذي يقدمهلنا ألبرتو مورافيا في قصته تلك لوناً عاماً يجد فيه جميع الناس نفوسهم ، لانه حب بين زوجين جد مختلفين ، وربما وجد الفنان من حقه ان يبالغ في اعطائها صفات متطرفة لكي يوضح نفسه وفكرته ، وان كان يعلم أن الواقع لا يشمل هذا التطرف المتناقض الا على سبيل الشذوذ . فليدا زوجة جميلة ممتلئة كلهــا غريزة وكلها شهوة ، وهي تدرك ذلك وتحاول ان تقاومه ، ولهذا فهي لا تحب ان تنســاق الى غريزتها وشهوتها وترى في الارادة الخيرة منقذاً لها من غريزتها . اما الزوج فهو على عكس ذلك تماماً ، فهو لا يعتمد في حياته الا على الارادة الخيرة،ولهذا فهو ميال الى الغريزة وما فيها من مباهج ومكاسب.أما هو فكان - كما يقول عن نفسه - كاتباً،لديه كل ما ييسره أروع مايمكن كتابته من ثروة ووقت ومكان هادىء مريح وأحسن انواع الاوراق وأجود انواع اقلام الحبر وآخر اختراع للآلات الكاتبة ، لديه كل شيء ما عدا العبقرية . ولهذا فانه يحسد الورق الرخيص الذي يخط عليه شاب يتضور جوعاً بضعة خطوط بالقلم الرصاص مدفوعاً بالهامه ، وهو جالس في مقهى أو مطعم عام . ومن هنا لم يكن لدى سيليفو بالديتشي الا ارادته في أن يكتب ، ولكن ارادته تلك لم تكن شيئاً كافياً ، فقد كان لا بد من وجود الالهام أو العبقرية أو الدافع الغريزي ، وهو ما يدرك انه لا يملكه . ولهذا فقد عمل حيناً بالنقد،فلما تحول الى التأليف وجد نفسه يحسن الاسلوب ولكنه يفشل في اختيار موضوعه.ومع ذلك فان قصة«الحب الزوجي» التي يقدمها لنا لا تفشل لا أسلوباً ولا موضوعاً ، وذلك لان كاتبها الحقيقي لم يكن بطلها ، إنما كان ألبرتو مورافيا نفسه . »

هذه القطعة الموسيقية ... هذه القصيدة جميلة ... اعد عليّ قراءة هــذه الفقرة ... فلنستمع الى هذه الأسطوانة مرة أخرى» وفي الوقت نفسه كنت أقوم بتعليمها الانجليزية . وقد اصابت تقدماً محسوساً في هذه الناحية لأنها كانت ذات ذاكرة طيبة وميل طبيعي. ولكن هذه الدروس كانت تكتسب صفة جذابة بسبب لطفها ومحبتها وإرادتها الطيبة . ولهذا فرغم انهـا كانت التلميذة وكنت انا المدرس ، كنت احس — كلما تقدمت هي — باحساس التلميذ الذي يتقدم في دروسه . وكان هذا صحيحـاً لان الدرس الحقيقي بيننا كان هو الحب ، وكان يبدو لي انني اكثر سيطرة عليه يوماً بعد يوم.

وحين كنت اضطجع في السرير إلى جانبها كنت كثيراً ما اتأمل جسدها، وكثيراً ما أحس بالخوف عندما اجده شديد الجمال ، فهو جمال يفوق كل وصف . وكان عليّ ان اضع في اعتباري — في وسط سعادتي الكاملة — ارادة زوجتي الطيبة . فحبها لم يكن تلقائياً مثل حبي بل كان حباً إرادياً ، فقد كانت لديها رغبة في ان تسرني وترضيني دائماً بل وان تمتدحني . ولقد رضيت بهذه الارادة الطيبة كدلالة على محبتها لي ولم أشغل نفسي — في ذلك الوقت — بأن ابحث عما تخفيه وراء ذلك ، فقد كنت سعيداً لدرجة انني تجاوزت انانيتي .

ولم أكن قد ذكرت شيئاً لزوجتي عن مطامحي الادبية ، لانني احس من ناحية انها قد لا تفهم شيئاً منها ، ولانني كنت ادرك من ناحية أخرى انني لم أحقق منها نجاحاً يذكر. وكنا قد امضينا الصيف على شاطيء البحر بالريفيرا. وبدأنا نناقش في شهر سبتمبر مشروعات الخريف والشتاء .فذكرت لها شيئاً عن محاولاتي الأدبية ، واذا بها تظهر دهشتها قائلة : « ولكنك لم تخبرني بذلك ابداً يا سيلفيو » . وحثتني على ان اريهـا شيئاً مما اكتب . فقلت لها اخيراً : « إذن تريدينني ان اكتب ، لقد مارست الكتابة مدى عشر سنوات ، وعبثاً نجحت في الحصول على شيء ذي اهمية ، ولكن اذا قلت لي استمر فاني سأستمر » . فنظرت اليّ وقالت :« بدلاً من العودة الى روما ، فلنذهب الى الفيلا التي في توسكانيا ويمكنك ان تكتب هناك ».

— ولكنك ستملين الحياة هناك .

— ولماذا ? ستكون انت هناك ، كما انني سأستمتع بتغيير الجو . فالحياة الهادئة لم تتح لي منذ زمن بعيد .

وبعد اسبوع غادرنا الريفيرا إلى توسكانيا .

ونظمنا حياتنا من أول يوم ، فكانت الخادم العجوز تحمل لنا الافطار صباحاً في غرفة زوجتي ، ثم اغادرها الى مكتبي لأكتب — او على الأقل — لاحاول ان اكتب ، حتى الظهر ، بينما تصدر زوجتي اوامرها الى الطباخ . وفي الظهر نتناول الغداء معاً ونحتسي القهوة ثم نصعد لنرتاح قليلا في غرفتنا ونلتقي من جديد لنتناول الشاي — وبعد ذلك نتمشى قليلاً بين الحقول أو على شاطيء قنال معشوشب او في الطريق العام المؤدي الى المدينة . وبعد عودتنا كنت اعطيها درس الانجليزية ثم اقرأ لها او تقرأ لي هي ان اتسع الوقت ، ثم نتعشى وبعد العشاء نقرأ او نتناقش ، واخيراً اذهب مع زوجتي إلى غرفتها. والحقيقة ان يومنا كله إنما يفضي الى هذه اللحظة. وكنت اجد زوجتي دائماً على استعداد ، سهلة الانقياد ، كأنما كانت تهبني وتهب نفسهـا مكافأة وتنفسا بعد مثل هذه الساعات الكثيرة الهادئة . وكان حبنا ينبثق من هذا الليل الساكن الممتد من خلال المصابيح الزيتية القديمة التي كانت تضيء يوماً ما جنبات هذه الغرف المظلمة . وكنت ادرك في مثل هذه الليالي معنى العاطفة الزوجية ، ذلك الخليط من التقديس العنيف والشهوة الشرعية .

أما الشيء الذي لم يكن على ما يرام فهو عملي . لقد كنت ابغي كتابة قصة طويلة ، وكانت قصة الزواج هي التي تشغلني ، قصتنا ، قصتي وقصـة زوجتي . وكانت فصولها تبدو لي واضحة كل الوضوح ، ولكن حين اجلس إلى مكتبي وابدأ الكتابة فان كل شيء يضطرب ويتعطل . ولما كنت قـد اشتغلت بالنقد سابقاً فأن هذه الخبرة جعلتني ادرك بان عملي لا يتقدم بـل يتأخر . وفي كتاباتي السابقة كان اسلوبي على الأقل ناجحاً ، اما الآن فلا الموضوع ولا الاسلوب ناجحان. وربما كان من الممكن ان اترك عملي ويكفيني حبي لزوجتي لو لم تكن هي التي تدفعني إلى ما أقوم به الآن . وهي تظن — لجهلها بشئون الأدب— ان الكتابة تأتي بمجرد الارادة . وعندما حاولت ان اعرض أمامها بعض العقبات التي تصادفني لم تجبني الا بقولها « لقد وعدت ان تكتب قصة عني ، ولا بد ان تفي بوعدك . »

وكنت قد لاحظت انني في الصباح — وبعد قضاء الليل مع زوجتي — أحس برغبة لا تقاوم في ان اترك افكاري مشتتة ، وأحس أرتخـاء في اطرافي .

واخيراً كان لا بد لي من ان اقول لها :

— انني احس أن كل القوة التي احتاج اليها لكتابة قصتي تؤخذ مني حين اكون معك. وإذا استمر الحال على هذا المنوال فلن يكون في استطاعتي ان اكتب .

— ولكنني أريدك ان تكتب ، أريدك ان تصبح كاتباً .

— لماذا ?

— لانك كاتب منذ الآن ، ولا يمكن ان تحيا حياة الخمول وتقنع بأن تضطجع معي كل مساء ، واذا كان ما تقوله صحيحاً فلا بد أن نغير كل شيء

وفي النهاية قبلت عرضها بالتغيير ، قائلا لها إن هذا هو اقتراحها هي ثم ما لبثت ان تملتها بحنان وأنا أهمس« سأصبح كاتباً بفضل ذلك».

وهكذا بدأت كتابة قصتي وأنا احس ان قوتي الابداعية تزداد يوماً بعد يوم ، فحصلت على الالهام بعد ما حصلت على الحب . وكنت اكتب كل يوم ما بين عشر صفحات واثنتي عشرة صفحة ثم لا أحس بقية اليوم بأي شيء آخر يهمني في حياتي ، ولا حتى محبتي لزوجتي ، وأحسب انه لو مرضت في تلك الفترة لما أحسست الا بقلق لما يترتب على ذلك من تعطيل لعملي .

هكذا استغرقني عملي حتى أني لم أول اهتمامي في ذلك الوقت لحادث بسيط ولكنه هــام . ذلك أن بشرتي شديدة الحساسية ، والحلاقة مسألة بالنسبة لي . ولهذا فاني لا أستطيع ان احلق بنفسي بل لا بد من استخدام حلاق لذلك . ولهذا فقد نظمت امر هذه الحلاقة مع حلاق يأتي لذلك كل صباح ، وقد كان هو الحلاق الوحيد بالقرية . وكان يأتي على دراجته في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف بعد أن يكون قد أغلق دكانه في الساعة الثانية عشرة . وكان مجيئه ايذاناً لي بايقاف عملي . وكان اسمه انطونيو . وهو في الاربعين من عمره وله زوجة وخمسة أطفال . ولم يكن من أهل القرية بل كان من صقلية .

وعند مجيئه تقبل الخادم وهي تحمل معها أدوات حلاقتي والماء المغلي،ومع أني لا أحب لحظة الحلاقة الا اني احببت هذا الحلاق ، وكنت أطرق معه مواضيع للحديث كما يعن لي ، فكنت أحدثه عن موسم الحصاد أو أسرته أو وطنه صقلية، واذا انفجرت ضاحكاً لسبب ما فانه يبعد الموسى عني وينتظر حتى انتهي من ضحكتي . ومع اني اوليته كل ثقتي الا انني احسست انني لم استطع ان انفذ الى اعماقه ، ورغم أنه كان فقيراً وله اسرة كبيرة فلم يكن يبدو عليه ان المال يقلقه ، ولم يتحدث عن اسرته باهتمام ولا بغير اكتراث، ولم يكن يعتبر مهنته غير وسيلة لكسب عيشه ، ولهذا قلت إنه لا بـد من

وجود شيء غامض في حياة هذا الرجل .

وبينما كان انطونيو يقوم بالحلاقة لي ، كانت زوجتي تأتي عادة الى الغرفة وتجلس في الشمس عند النافذة المفتوحة ومعها علبة المانيكير او كتاب ، وكنت احياناً اقطع على الحلاق عمله لاسألها عن صحتها او عن الكتاب الذي بيدها . وفي ذات يوم طلبت زوجتي من الحلاق ان يصفف لها شعرها وسألته ما اذا كانت له خبرة سابقة بذلك فأجابها بالايجاب ، وعند ذلك طلبت منه ان يعرج على غرفتها بعد ان ينتهي من مهمته معي . وعندما غادرت زوجتي الغرفة سألته ما اذا كانت له خبرة بتصفيف شعر النساء ، فأجابني بشيء من الفخر بأن كل فتيات القرية يأتين اليه ليصفف شعورهن ، فدهشت لذلك ولكنه اكدلي أن أقل الفلاحات شأناً يرغبن اليوم في تجميد شعورهن . وغادرني انطونيو إلى حجرة زوجتي بينا جلست انا أقرأ كتابها . وبعد ثلاثة ارباع الساعة سمعته يلقي سلامه . وبعد دقائق قليلة جاءتني زوجتي في الغرفة فأقفلت كتابي وتطلعت اليها والى شعرها المصفف وانا ابدي اعجابي . ولدهشتي وجدت ان زوجتي لا تبادلني فرحي بل دفعتني بعيداً بحركة اشمئزاز وهي تقول : « ليس هذا وقت المداعبة » . ولم افهم شيئاً بل قلت لها ان انطونيو قد قام بعمله على خير وجه ، واذا ذهبت الى حلبة الرقص بهذه الهيئة فسيعرض الكثيرون عليك الزواج .

– لكن قلت لك إنه ليس الآن مجال الضحك !

– لماذا ؟ ماذا حدث ؟

– لست أريد هذا الحلاق مرة اخرى !

– ما هي المسألة ؟

– لقد كان وقحاً ، لست أريد أن اراه ثانية .

– لكن لا أفهم ، فهو رجل محترم رصين وذو اسرة .

– لقد قلت لك انه كان وقحاً ، وهذا يكفي .

وازاء اصراري لم تجد بداً من ان تشرح لي كيف ان الحلاق كان يلمس كتفها وذراعها بجسمه اكثر من مرة اثناء تصفيفه لشعرها ، وقد لاحظت ان هذه اللمسات لم تكن عفواً بل كانت تخفي وراءها مأرباً .

– ولكن هل انت على يقين مما حدث ؟ ربما كان ذلك عرضاً .

– لو أن ما حدث كان مرة واحدة لجاز ان يكون عرضاً . أما وقد تكرر عدة مرات طوال الوقت ... كلا لم يكن عرضاً ..

واردفت قائلة : « ان ما اريد ان أعرفه هو هل انت على استعداد لطرده ؟ »

ويبدو ان انانيتي كانت قد بلغت ذروتها في هذه اللحظة . ذلك لاني اعلم انه لا يوجد حلاق آخر في القرية ، وانالا استطيع ان احلق بنفسي ولا ان اذهب يومياً إلى حلاق آخر فلست احب ان يختل النظام اثناء عملي الذي بدأته . ولهذا أجبتها بانني لن اطرد الحلاق .

والواقع ان حادثة انطونيو ما استأثرت بانتباهي في ذلك الوقت على النحو الذي اسردها به الان ، ولولا الحوادث التي تعاقبت بعد ذلك ما كنت لاذكرها بمثل هذا الاهتمام ويبدو ان هذه هي نفس الطريقة التي يكتبون بها التاريخ ، فمن يكتب التاريخ انما يكتبه وفي ذهنه حوادث معينة قد اثرت على مجراه .

وعندما اقبل انطونيو في اليوم التالي قام بعمله كالمعتاد . وكان من الممتع ان ادرس الرجل على ضوء جديد . فلاحظت انه تبدو عليه ملامح رب الاسرة النموذجي ، هذا الى ان وجهه كان من القبح بحيث لا يمكن ان يطمع في ان ترضى به اية سيدة ، فما بال امرأة في جمال زوجتي وثرائها ؟

ثم بدا لي ان اسأله قائلاً :

– لطالما تساءلت يا انطونيو عما اذا كان رجل مثلك ، متزوج وله خمسة اطفال ، يجد الوقت والفرصة لمصاحبة النساء .

فأجاب بغير ان يبتسم ، وهو يتجه نحوي وموساه بيده :

– ان الوقت دائماً موجود يا سنيور بالديتشي لهذه العلاقات بالذات .

واعترف اني قد توقعت اجابة مختلفة ودهشت دهشة واضحة وقلت معترضاً :

– ولكن ألا تغار زوجتك ؟

– كل النساء غيورات !

– اذاً فانت لست مخلصاً لها .

فنظر نحوي قائلاً : معذرة يا سنيور بالديتشي ، فهذا شأني الخاص .

واحمر وجهي خجلاً ، وكدت اقول له : ان هذا شأني انا ايضاً لانك ضايقت زوجتي . ولكن تمالكت اعصابي قائلاً : انني لم اقصد الى اساءتك يا انطونيو .

فاجابني : كلا بالطبع . ثم اردف قائلاً : ان كل شخص يحب النساء يا سنيور بالديتشي حتى القس في سان لوريتزو له عشيقة وقد انجبت منه طفلين . واذا اتيح لك ان تنفذ الى ادمغة الناس لرأيت ان لكل رجل امرأة او اكثر . ولكن احداً لا يتكلم لان الناس اذا عرفوا فانهم يثرثرون والنساء – كما تعلم – لا يثقن الا بمن لا يتكلم .

وهكذا لقنني درساً في سربة الحب وتركني حائراً لا اعرف ما اذا كان هو نفسه واحداً من هؤلاء الذين تثق بهم النساء . ورأيت ان اغير موضوع الحديث . ولكن الشك ظل يساورني حتى انه عندما اتى في العصر الفلاح انجلو الذي يحاسبنا مرة كل اسبوع وسألته عن انطونيو ، أفهمني انه زير نساء وانه لا يتوانى عن مماكسة الجميلة والقبيحة ، المتزوجة والعذراء ، الصغيرة والكبيرة . وعندما انفردت بنفسي ادركت ان انطونيو رجل داعر . وبدا لي ان الغموض الذي كان يكتنفه قد تكشف لي . وهكذا وجدتني انافس دون جواناً قروياً .

وعندما قابلت زوجتي في المساء لم استطع ان افاتحها فيا اكتشفت ، ولكن كنت أحس بالاثم لما أخفيه عنها ، ولهذا فعندما رأيتها ذات لحظة شاردة الذهن قلت لها : «ربما كنت ما تزالين تفكرين في انطونيو . اذا اردت ان تتخلصي منه فاني سأفعل » . ولو انها طلبت مني ان اطرده لفعلت ، لكنها اجابتني قائلة : «افكر في الحلاق ؟ كلا كلا ، الواقع اني نسيت كل ما يختص به . »

وهكذا أتى انطونيو في صباح اليوم التالي ، وحلق لي ، ثم مضى كعادته ومضيت انا في عملي الذي كان يستغرقني في تلك الايام ويصرفني عن كل شيء آخر . أما زوجتي فانها لم تعد تهبط وتجلس معي اثناء وجود انطونيو .

وأخيراً اتى اليوم الذي كتبت فيه آخر كلمة من قصتي ، وكنت قد ملأت حوالى مئة صفحة في مدى عشرين يوماً ، ولم أستطع الا ان احس بأن هذه الصفحات تحوي أروع ما كتبت في حياتي ، ورأيت ان اقرأها على زوجتي لانها – رغم جهلها بشؤون الادب – خير حكم على قصتي . وكنت ادرك ان في القصة نقائص لاني لم اعد قراءتها وذلك لانني كتبتها على عجل لكنني لم اشك في حيويتها . وكانت هناك أمامي عقبات اهمها ان الخطوط مضطرب ، به تقديم وتأخير وسيضطرني الى التوقف اثناء قراءته للرجوع الى صفحة غير الصفحة التي اقرأ فيها مما يقلل من جمال السياق ، ولهذا فقد رأيت ان اقوم بطبعها من جديد على الآلة الكاتبة ، وكنت قد احضرت آلة الكتابة معي من روما ، ولكن حين بحثت عن الورق تبين لي انني نسيته

بروما. وكان لا بد من الذهاب إلى المدينة المجاورة لاحضار ورق آخر من المكتبة هناك . واعلنت لزوجتي عن رحلتي التي اعتزمت القيام بها صباح اليوم التالي فسألتني : « ومتى ستعود ؟ »

– سريعاً جداً ، ساعة الغداء على أبعد تقدير .

– وما العمل اذا اتى الحلاق ؟

– سأعود بالتأكيد قبل مجيئه . فاذا حدث واتى قبلي فأجعليه ينتظر .

فلم تجب . ورأيت ان اغير موضوع الحديث . وكنا جالسين الى المائدة وقد ارتدت ليدا ثوباً أبيض قصيراً رائعاً كما تزينت بجواهرها الضخمة الثمينة . واتجهت نحوها قائلاً : « انت جميلة جداً يا ليدا . » ولم تجبني ، فوضعت يدي على يدها وهممت قائلاً : « أعطني قبلة» فرفعت عينيها ونظرت الى وسألتني ببساطة لا سخرية فيها : « هل انتهيت من عملك ؟ » فشرحت لها كيف ان قصتي تحتاج الى كتابة على الآلة الكاتبة وأنني لا اكون قد انهيتها حقاً حتى انتهي من طبعها . فصاحت فرحة: «انها لحظة عظيمة لا بد ان نشرب نخبها . »

وشربنا وشربت الخادم معنا . ولست أذكر جيداً ما حدث في تلك الليلة ، فقد أخذت اشرح لها موضوع قصتي وكيف اتخذته من شخصينا ومن زواجنا . وكان التيار الكهربائي ينقطع عادة لان وقت حصاد الزيتون قد حان ، فكان التيار يتحول الى المعاصر. ففتحت النافذة لاجد الظلام ممتداً أمامنا . وعند ذلك سمعت صوت زوجتي يقول : « ألم يحن وقت النوم ؟ لا بد وان الوقت قد تأخر كثيراً . »

وربما كانت زوجتي تعني بقولها ذلك ان يذهب كل منا الى غرفته ، أما انا فقد رأيت – في نشوتي – انها تدعوني دعوة الحب . فاتجهت نحوها قائلاً : « ان القمر رائع ، فلماذا لا نسير قليلاً ؟ »

وهكذا خرجنا نسير في الليل الصامت العميق ، وظللنا نسير حتى شاهدنا منازل الفلاحين في اعلى التل ، ثم وصلنا الى الاجران . ورفعت نظري نحو ثلاث كومات ، كان القمر قد القى ضوءه الرائع عليها . وراودتني فكرة – او بالاحرى رغبة – ذلك ان أتسلق احد هذه الاجران مع ليدا وادعوها هناك دعوة الحب ، وبهذا أختم عملي ، وفي نفس الوقت ابدأ حياتي الزوجية . والواقع اني كنت جد مشتاق الى ليدا . فأخبرتها برغبتي في تسلق الكومة فلم تمانع ، ومضينا نتسلقها معاً . ولما وصلنا الى اعلى اخذنا نحدق في الارض المتسعة امامنا وانا احتضنها من خصرها ، وفجأة جذبتها نحوي ، ولكنها قاومت قائلة : « ان عملك لم ينته بعد . وعندما تتمه ستأتي هنا ليلاً . »

وضحكت في خفة ثم نزلت تعدو امامي ، وعدوت خلفها حتى امسكتها ثم قبلتها . واحسست ان ضحكها قد هدأ كل رغبة في ، فسرت بجانبها وانا اقبض على يدها بشدة . وعندما وصلنا إلى المنزل قبلت يدها وذهبت الى غرفتي وما لبثت ان استغرقت في النوم. وفي صباح اليوم التالي ركبت عربة انجلو وذهبت الى المدينة ، وهناك اشتريت الورق الذي اريده ثم عدت ادراجي . ومن نافذة المنزل رأيت ليدا تنتظرني ، فلما رأتني صاحت قائلة: «لقد تأخرت . »

– كم الساعة الآن ؟

– إنها الواحدة .

– هذه غلطة آنجلو ، فقد تركني وجلس يتسامر مع بعض اصدقائه . سأصعد لاحلق ثم أهبط ثانية .

وصعدت السلم في سرعة ودخلت مكتبي ورأيت انطونيو ينتظرني . فقلت له : «أسرع ، اسرع ، فالوقت متأخر جداً ».ذلك أني كنت شديد الجوع لأني خرجت بغير ان اتناول افطاري في الصباح. أما انطونيو فكان يقوم بحركاته ببطء كعادته وانا استحثه ان يسرع ،وهو يغطي ذقني بالصابون ثم يعيد الفرشاة عليها مرة بعد اخرى ، ثم ينحني نحوي ويبدأ حلاقته ، وبخفته ومهارته ازاح الجزء الاكبر من الصابون عن الخد الايمن ، وبدأ يفعل المثل في الخد الايسر ، وضغط جسده على ذراعي ، ولاول مرة منذ أخذ يحلق لي وجدتني الاحظ هذه الضغطة وتذكرت اتهامات ليدا. وفجأة ومن خلال اشمئزازي ، ادركت اشمئزاز زوجتي، وانتظرت لحظة آملا ان يبتعد ولكنه لم يفعل ، فتغلب علي اشمئزازي فجأة ، وتراجعت الى الوراء بحركة سريعة ، وفي نفس الوقت احسست بالموسى تقطع جزءاً من خدي. وفجأة انصب غضبي على انطونيو لسبب لا أدري مصدره. وكان الآن واقفاً ينظر إلي في تعجب والموسى في يده وانا أصيح فيه : « ماذا فعلت ؟ هل انت مجنون ؟ »

– ولكن يا سينور بالديتشي ، لقد تحركت انت ، لقد قفزت فجأة .

– هذا كذب !

– ولكن كيف يمكن ان اجرحك بغير ان تتحرك ؟ ومع ذلك فليس الامر خطيراً . انتظر لحظة .

وذهب ليأتي بقطعة قطن بعد ان غمرها بالكحول . ولكني صرخت فيه وأنا اخطف قطعة القطن من يده :

– كيف تقول إن الامر لا خطورة فيه ، إنه جرح كبير !

واتجهت نحو المرآة بينما كان الألم الناري الناتج عن وضع الكحول يزيدني غيظاً فصحت فيه : « اخرج ولا ترني وجهك مرة اخرى ، لست أريد ان اراك مرة اخرى . هل تفهم ؟»

– لكن يا سنيور بالديتشي..

– هذا يكفي ... أغرب عن وجهي ولا تعد ابداً . أخرج،هل تفهم؟

– وهل آتي غداً ؟

– لا غداً ولا أي يوم آخر .

– أمرك .

وعندما اصبحت وحدي بدأت تخف حدة غضبي. فأخذت الفوطة ومسحت بقايا الصابون التي كانت ما تزال على وجهي ووضعت قطعة اخرى من القطن مبللة بالكحول واتجهت الى غرفة الطعام حيث كانت زوجتي تنتظرني. ومضينا نأكل في صمت ثم قلت لها :«هل تعرفين ؟ لقد طردت انطونيو » وبغير ان ترفع عينيها عن صحنها سألتني:«وماذا ستفعل في امر حلاقتك ؟»

– سأحاول ان احلق بنفسي . والواقع ان الجرح كان مجرد حجة لطرده . ذلك اني لم أعد احتمله . لقد كنت على حق .

– ماذا تعني ؟

ورأيتني اذكر لها حديث الفلاح آنجلو عن انطونيو ، ولكن بعد ان غيرت تاريخه فجعلته صباح اليوم . فغيرت مجرى الحديث قائلة : « وهل وجدت الورق ؟ » فأجبتها:«ليس النوع الذي أريده تماماً ، ولكن سابدأ بطبع القصة اليوم ». ولاحظت ان ذهنها شارد ، فصمت.

وعندما غادرتني لتستريح ذهبت الى مكتبي ، وهناك حاولت ان اطبع الصفحات الاولى من قصتي ، ولكن كنت مضطرباً اضع الكربون بالمقلوب مرة واخطىء بالحروف مرة اخرى ، فذهبت الى السرير لاستريح بدوري . وعندما استيقظت كانت الغرفة مظلمة ، فلما خرجت منها رأيت

امامي زوجتي، فتناولنا الشاي معاً ثم خرجنا نتمشى معاً بين الحقول. وجلسنا في مكان معشوشب وزوجتي تقص علي قصصاً عن مغامراتها الغرامية قبل زواجي بها . واخيراً عدنا وصعدت زوجتي لتغير ملابسها بينا جلست انا استمع الى رقصة من رقصات موزار . ورأيت ليدا امامي في ثوبها الابيض القصير الذي كانت ترتديه الليلة الماضية . ثم اوقفت الجرامافون وقالت : «اذن ستبدأ طبع قصتك هذا المساء» ونظرت الى نفسها في المرآة ترتب باقة من الورد في شعرها فأجبتها : «نعم . هذا المساء ، سأعمل الى منتصف الليل على الاقل، فاني اريد الانتهاء منها في بضعة ايام .»

ولاحظتها تسير وهي تقطع الغرفة جيئة وذهاباً في قلق ، فسألتها : ماذا بك ؟ فاجابت في نغمة قلقة : «انني جائعة ، ألست جوعان انت ايضاً ؟»

– نعم ، ولكن لا اريد ان آكل كثيراً، والا فسرعان ما يراودني النعاس .

– وما رأيك في هذا الثوب ؟

ويبدو انها ارادت بهذا السؤال ان تغير مجرى الحديث فأجبتها :

– انه رائع .

وفي هذه اللحظة أعلنت الخادم ان العشاء قد اعد، فجلسنا نأكل. ولكني لاحظت انها لا تأكل . فلما سألتها اجابتني بأنها تحس انها ليست على ما يرام وتود ان تذهب الى غرفتها. وسألتها ما اذا كانت تحس بحرارة فأفهمتني انها تحس بتعب نسائي . فطلبت منها ان تأتي وتقبل لي بشفتيها الصفحة الاولى من قصتي لأتفاءل بقبلتها . وبعد ان قبلت الصفحة الاولى ودعتها . ثم مضيت الى عملي . ولكن كنت كلما حاولت ان اقوم بالطبع احسست بتفاهة عملي . وفي غمرة اليأس فكرت ان انادي زوجتي . وفتحت باب المكتب وعبرت الممر ووجدتني امام بابها . وطرقت الباب ولكني لاحظت انه موروب فقط فدهشت من هذا الوضع الحذر للباب . ولم اجد رداً على طرقاتي ، فدفعت الباب بعد ان انتظرت مدة مناسبة ودخلت .

كانت الغرفة مظلمة فأضأتها ، ووجدت السرير خالياً ولاحظت ان الغرفة تعبق برائحة السجائر وأن بقايا السجائر ما تزال في المنفضة مما يدل على ان زوجتي غادرت غرفتها منذ لحظات. وانتابني شعور بالمضايقة، فاذا كان النوم لم يؤاتها ورغبت في الخروج فلماذا لم تطرق بابي وتخبرني بذلك ؟ ولماذا خرجت وحدها ؟ وخرجت بدوري في الخلاء امام الباب . وكان ضوء القمر قد ذكرني بالليلة السابقة التي امضيتها مع زوجتي ، وفجأة عاودتني الرغبة لاحقق الان ما لم استطع بالامس تحقيقه ، وبينما انا سائر، اذا بي ارى ليدا ، والواقع اني لمحتها فقط ، لمحت ثوبها الابيض وعنقها العاري وشعرها الذهبي ، ثم اختفت ، وتأكدت انها ذاهبة تجاه ابنية المزرعة ، فانتابتني النشوة لانها تتجه ناحية الجرن، ناحية المكان الذي اريد ان اتمتع فيه معها كأنما هي على ميعاد معي . ووصلت الى الابنية وهي تكاد تعدو ، وعندما وصلت الى هناك بدوري وقفت ، وقد داخلني إحساس داخلي لم استطع له تفسيراً . واستطعت ان اراها الان تتسلق المنحدر نحو الجرن حيث تقف كومات القش الثلاث ، وكانت تتسلق متشبثة ببعض الاعشاب النامية ، حتى لقد شبه لي انها عنز تتسلق منحدراً بحثاً عن طعام . وحين وصلت الى القمة ظهر شبح رجل امسك بذراعها وجذب جسمها كله تقريباً.

وادركت الان كل شيء ولم اكن اود مشاهدة المنظر ، وبالرغم من ذلك فقد وقفت احدق في شراهة بعيون قلقة . كانت ارض الجرن كأنها مسرح مرتفع اضاءه القمر . ورأيت انطونيو يحاول ان يجذبها نحوه وهي تقاوم ، وسقط ضوء القمر على وجهها ثم لمحت فمها مفتوحاً نصف فتحة في ضحكة فاترة تدل على الاشمئزاز وعلى الرغبة معاً .

ورجعت اعدو الى الفيلا وانا افكر في سياق الحوادث . لقد كانت زوجتي مخلصة في غضبها من الحلاق ، ولو ان غضبها المفرط كان يخفي وراءه بداية إثارة وانجذاب لا شعوريين . والواقع انها حين طلبت مني ان اطرد الحلاق كانت تدافع عن نفسها من نفسها اكثر مما كانت تدافع عن نفسها من الحلاق ، ولكني – بانانيتي – لم ادرك ذلك ولم افكر الا في راحتي ، وتقبلت هي الوضع بدافع من ارادتها الطيبة . ولكن الرجل الذي كانت تحبه لاشعورياً ظل يأتي الى المنزل يومياً . وفي اثناء زيارتي للمدينة اعطيتها الفرصة لتعرف حقيقة احتقارها للحلاق . فلقد اتى قبل وصولي وتفاهمت معه بطريقة ما تفاهماً فجائياً وتاماً ونهائياً وتواعدا على اللقاء مساء في نفس المكان الذي رغبت . وكانت على ثقة من اني سأكون مشغولاً بعملي في ذلك الوقت ، وكانت تقص علي قصص مغامراتها الغرامية السابقة بعد ان أعاد لها ذكرياتها هذا التواعد على اللقاء مع انطونيو . ولم نخف قلقها اثناء تناولنا العشاء ، ولا بد انني كنت اعمى لانني لم ادرك ان سبب انعدام شهيتها هو تلك الشهية الاخرى التي كانت السيطرة لها، وبينما اغلقت على نفسي باب مكتبي كانت هي تنتظر ثلاث ساعات متواليات وهي تدخن سيجارة بعد اخرى . وعندما حان الوقت مضت تعدو الى موعدها .

ولقد لاحظت ان في سلوك زوجتي تصرفات مؤقتة تظهر فجأة في اماكن مجهولة ثم تختفي مرة اخرى كأنهار الصحراء . فاذا لم اخبر ليدا بمعرفتي بعلاقتها بانطونيو ، فانها ستتخلص منه هي . ولكني لم ارتح لهذه الفكرة فضلاً عن انها ملأتني بالكآبة، ورأيته دليلاً اخر على ضعفي وعدم قدرتي وعجزي . لقد كان حصولي على كتابتي وعلى زوجتي من خلال الشفقة والعطف والاحسان والارادة الطيبة، ولا يمكن لهذه العواطف ان تؤدي الى الشعر او الحب ، بل انها تؤدي الى موضوع انشائي مزخرف، ومجرد سعادة فاترة . فليس من نصيبي ان اقوم بعمل رائع . لقد قدر لي ان اكون رجلاً عادياً الى الابد . وفكرت ان اكتب خطاباً الى زوجتي ثم انتحر ، ولكن وجدت ان دموعي بللت ما كتبت فشوهته ، كما انني ادركت انه لن تكون لي الشجاعة ابداً لارساله. وفي هذه اللحظة ادركت ضعف شخصيتي وعجزها وشذوذها وانانيتها. وقد تقبلت شخصيتي هذه بكاملها. وقد فكرت ان اغير من شخصيتي ما دمت قد عرفتها الليلة ، وهدأتني هذه الفكرة وقت وغسلت عيني المحمرتين ووقفت في النافذة فلمحت زوجتي مقبلة كأنها حيوان بري صغير ، كأنها ثعلب او عرسه عائدة الى جحرها بعد قيامها بغارة على عشة دجاج . ورفعت عينيها نحوي حتى التقتا بعيني ، فخفضت رأسها في الحال ودخلت المنزل. وتراجعت انا بدوري حتى النافذة وذهبت لاجلس على الكنبة .

وبعد لحظة فتح الباب ودخلت منه. وادركت من هذه الحركة العدائية لوناً من الدفاع عن نفسها . ولم اتمالك الا ان ابتسم. وسألتني وهي ما تزال ممسكة بمقبض الباب : « ماذا تفعل... ألا تعمل ؟ » فأجبتها بغير ان ارفع رأسي : «لا» فقالت توضح لي شيئاً لم استفسر عنه : « لقد خرجت أتمشى في المتنزه ، لم استطع النوم ، لكن ماذا بك ؟ » فبذلت مجهوداً وانا اقول لها : « لقد اكتشفت هذه الليلة اكتشافاً ... اكتشافاً حاسماً... سيكون له اثر كبير في حياتي .»

ونظرت اليها ، كانت واقفة بجوار المكتب وهي تحدق في الآلة الكاتبة مقطبة وتنظر نظرة غاضبة ، ثم سألت في صوت مرتفع :« اي اكتشاف؟»

إذن فقد كانت على استعداد للمجادلة ، ممـــا اذكرني ببعض الحشرات التي تتأهب دفاعاً عن نفسها في حالة الخطر وذلك بأن تقف على أرجلها الخلفية. فاجبتها : « لقد قرأت قصتي ، انها لا تستحق شيئاً ولن اكون كاتبـــاً على الاطلاق . لقد فكرت منذ ساعة ان أقتل نفسي . »

ولاحظت انني كنت أفكر فيها طوال الوقت ، فرداءة القصة لاتهمني.. وشعرت بطعنة حادة من الالم عندما لاحظت آثار فعلتها مع انطونيو . فشعرهـــا كان مضطرباً ، وباقة الورد لم يعد لهـــا وجود . وأدركت انهـــا ارادت ان تظهر امامي بهذا المظهر ، فقد كان باستطاعتها ان تذهب الى غرفتها اولاً وتغير من هيئتها . وأحسست بـــألم جديد لهذه الفكرة بينا كانت تقول : « تقتل نفسك ؟ هل انت مجنون ؟ ولمجرد قصة لم تنجح في كتابتها ؟ » وترجمت ذلك عقلياً الى قولها : « لمجرد لحظة نزق ؟ لانني لم استطع مقاومة اغراء عارض ؟ » ولكني اجبت :« انا اعرف اني فاشل ولدي البرهان على ذلك في هذا المخطوط . » وعندما قلت ذلك اشرت اليها بلا ارادة بدلا من ان اشير الى المخطوط . وأدركت في هذه المرة وخفضت عينيها في اضطراب . وسمعتها تسأل في صوت مرتعش على غير توقع :

– لماذا انت فاشل ؟ انك لم تفكر إذن في .

– وماذا تستطيعين عمله من اجلي ؟ انت لاتستطيعين ان تعطيني الموهبة التي احتاج اليها .

– كلا لا استطيع لكنني احبك .

– وانا احبك ايضاً ،ولكنني اخشى الا يكون هذا كافياً لتستمر حياتي.

فجثوت امامها ، ولكنها قالت بصوت عاطفي : «هيـــا انهض ، هل تعلم ماذا سنفعل الآن ؟ سأذهب لأخلع ملابسي واذهب الى السرير وتستطيع اذ ذاك ان تأتي وتقرأ علي قصتك وسنرى اذا كانت رديئة حقاً.»

وعندما ذهبت الى مكتبي كنت أقول إن ارادتها الطيبة تنغلب الآن ، ولا شك انها فيا تقول مخلصة . سأقرأ لها قصتي فان امتدحتها فسأعلم انهـــا تخدعني طوال الوقت وستظل تخدعني . اما اذا رأت غير ذلك فسأدرك انها تحبني ، ولو كان هذا النوع من الحب الذي يعتمـــد على الارادة الطيبة ، وتساءلت اي الطريقين عساها تختار.انها إن قالت بأن قصتي جيدة فسأصرخ فيها قائلاً : ان قصتي رديئة ، وما انت الا عاهر .

وانتهيت اخيراً من قراءتي . وسمعتها تقول : ربما كنت على حق،فالقصة ليست رائعة ، ولكنها ليست بالرداءة التي تتصورها ، انها شيقة لمن يسمعها.

وارتحت الى إجابتها ارتياحاً عظيما وانا اقول لها : الم اقل لك ذلك ؟

– ولكنها مكتوبة كتابة جيدة .

– ولكن الكتابة الجيدة لا تكفي .

– ربما لم تجهد نفسك فيها جهداً كافياً . اذا اعدت كتابتها – ربما اكثر من مرة اذا تطلب الامر – فستصل في النهاية إلى ما تريد.

لقد كانت تعتقد ان الارادة الطيبة لها قيمتها في الفن ايضاً اكثر ممـــا للغريزة. فأجبتها « ولكن احتاج إلى الالهام، فبغير الالهام لا استطيع شيئاً» فأجابتني قائلة : وهذا هو الخطأ في تفكيرك . ان الامور لا تتم بمعجزة ، فلا بد من العمل والتعب. واستمر نقاشنا مدة حتى قلت لها في النهاية :« لن نتكلم في هذا الموضوع بعد الآن .»

وقبلتها قبلة المساء ثم ذهبت الى مخدعي ونمت نوماً عميقـــاً، كنوم طفل ضربه والده لخطأ اقترفه ، وصرخ وبكى مدة طويلة ثم عفـــا عنه . وفي الصباح التالي قمت متأخراً،وحلقت لنفسي وبعد الافطار اقترحت علي زوجتي ان نتمشى قليلاً قبل الغداء ، فوافقت وخرجنا معاً حتى وصلنا الى اطلال كنيسة صغيرة ومضينا نتسلقها . وبينا نحن نشاهد المناظر المختلفة التفت لبدا نحوي تقول :

– إسمع ، لقد كنت افكر الليلة الماضية في قصتك . إني اعرف سبب ضعفها.

– وما هو ؟

– لقد اردت ان تعبر عني وعنك . اليس كذلك ؟

– نعم ، إلى حد ما .

– إن وقائعك التي بدأت بها كانت خاطئة . اعني ان الانسان يحس انك حين كتبت القصة لم تكن تعرفني المعرفـــة الكافية ولا تعرف نفسك كذلك . ربما تسرعت في الكتابة عنا وعن علاقتنا – ولاسيا عني انـــا فلم تظهرني على حقيقتي . فلقد تساميت بي كثيراً .

– وهل ثمة شيء آخر ؟

– كلا ، لا شيء آخر ، اظن انه بعد قليل، حين نعرف بعضنا اكثر، يجب ان تعيد نظرك في القصة مرة اخرى كما قلت لك في الليلة الماضية وانا على ثقة انك ستخرج منها بشيء جيد .

فلم اقل شيئاً ، كل ما فعلته اني ربت على يدها ، ثم همست بهدوء :

– سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً .

القاهرة

يوسف الشاروني

كنوز القصص الانساني العالمي

سلسلة جديدة تعرف القارئ العربي إلى شوامخ الآثار القصصية العالمية ذات النزعة الانسانية

اختارها ونقلها الى العربية
منير البعلبكي

صدر منها :

			ق.ل.
١ – كوخ العم توم	(الطبعة الثانية)	لهرييت ستاو	٢٠٠
٢ – اسرة آرتامونوف	(الاول)	لمكسيم غوركي	٣٠٠
٣ – « «	(الثاني)	« «	٢٥٠
٤ – المواطن توم بين	(الاول)	لهاوارد فاست	١٥٠
٥ – « « «	(الثاني)	« «	٢٠٠
٦ – ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة		لمكسيم غوركي	١٠٠
٧ – حكايات من ايطالية		« «	١٠٠
٨ – شارع السردين المعلب		لجون شتاينبك	١٧٥
٩ – حياتي (قصة رجل من الريف)		لانطون تشيخوف	١٢٥
١٠ – طريق التبغ		لارسكين كالدويل	٢٠٠
١١ – افول القمر		لجون شتاينبك	١٥٠
١٢ – أرض المآسي		لارسكين كالدويل	٢٠٠
١٣ – ابناء العم توم		لريتشارد رايت	١٥٠
١٤ – الشيخ والبحر		لارنست همنغواي	١٢٥

دار العلم للملايين